المناهج النقدية الحديثة وآليات التأويل

بشرى منصوري

البليدة

مقدمة:

دأبت المقاربات ما بعد البنيوية على رد الاعتبار للقارئ ومنحه مركزية وتكرسيه كعنصر فاعل في عملية بناء جماليات النص وإنتاج المعنى، فصارت –المقاربات ما بعد البنيوية– منفتحة باستلهام آلياتها وإجراءاتها من مجموعة من المرجعيات الفكرية الفلسفية والإبستمولوجية المناهضة أحيانا لما سبق من منجزات وفتوحات معرفية ومنهاجية، هدفت إلى مواجهة إكراهات العصر والمعضلات المنهاجية التي كشفت عوراتِها المناهجُ النقدية من خلال نصوص نقدية كان لزاما على الباحثين في مجالات النقد والإبستمولوجيا وضعها موضع المراجعة والتقويم كسبيل أمثل للرقي بحقل النقد عموما، من خلال الكشف عن سلامة الأدوات الإجرائية والمبادئ النظرية، ولا شك أن هذه المساءلة التي تتم ضمن حقل نقد النقد الذي يعد ميدانا فتيا خصبا تتلاقح فيه مباحث عديدة ومتشعبة، وفق مجموعة من الآليات الإجرائية المنهاجية المستندة إلى خلفيات فكرية ونظرية؛ إذ إن نقد النقد يتعلق أساسا بالمنهج والمنظومة المصطلحية والآليات التطبيقية، وقد حاول العديد من الباحثين خوض غمار تأصيل نقد النقد وترسيم حدوده وإجلاء معالمه خاصة التطبيقية باقتراح الآليات المنهاجية الكفيلة بالكشف عن خبايا النص النقدي، وتبعا لهذا المنطلق قدم العديد من الباحثين مقترحات رأوا أنها مناسبة لملامسة تخوم النص النقدي والغوص فيه تنقيبا وكشفا عن الدلالات والتأويلات التي يتمنع النص عن تقديمها جاهزة للباحث، وعلى الرغم أن هذا الأمر يعد تأسيسا لحقل نقد النقد في الدراسات النقدية العربية ومحاولة جادة في سبيل منحه شرعية إبستمولوجية واستقلالية عن غيره من العلوم؛ إلا أن البعض من الدارسين كـ(محمد

برادة) حاول مقاربة النصوص النقدية باستخدام منهج نقدي –البنيوية التكوينية– أثبت عقمه وعدم جدواه لأنه أدخل نقد النقد تحت مظلة النقد الأدبي، وتعد محاولات (الدغمومي) و(حميد لحميداني) أيضا محاولات رصينة باقتراحهما لمجموعة من الآليات التي كانت – حسب رؤية كل واحد منهما– كفيلة بمساءلة النص النقدي مساءلة منهاجية سليمة تفضي إلى نتائج علمية متينة، وبقي نقد النقد يعيش حالة من التخبط والاضطراب المنهجي إلى أن احتضن التأويل كآلية فاعلة تسهم في عملية النبش واستظهار ما يستبطن النص النقدي.

ويكتسب التأويل فعالية نقدية تناهض الأحكام الموضوعية والمفاهيم التقليدية بهدف الوصول إلى قراءة إبداعية منفتحة تفاعلية بين المبدع والمتلقي فرضت نفسها في مقابل بعض الآليات التي أثبتت عدم قدرتها على إنتاج معرفة جديدة كالوصف الذي يعمل على الوقوف عند حدود إعادة صياغة المعرفة القديمة، من خلال إعطاء القارئ مركزية واعتباره عنصرا فاعلا ومحوريا في عملية بناء جماليات النص وصناعة المعنى، فصار التأويل عصبا أساسيا في المقاربات الميتا نقدية لما له من قدرة على التوغل في طبقات المعنى واستبطان الدلالات المخفية ومساءلة النص النقدي، والآلية القادرة على إنتاج معرفة جديدة دون الاكتفاء بالتوصيف والشرح.

وتأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على الإشكاليات المنهجية التي يواجهها الخطاب الميتا نقدي ومحاولة الاقتراب من التأويل كآلية فاعلة في: تشكيل الخطاب الميتا نقدي ومساءلة الأقوال النقدية، للكشف عن سلامة مبادئها النظرية وأدواتها الإجرائية، عن طريق الإجابة عن الإشكاليات لتالية:

- ما نقد النقد؟ وما حدود اشتغاله؟
- كيف نمارس نقد النقد؟
- كيف يسهم التأويل في تفتيت النص النقدي؟

- إلى أي مدى يمكن للمقاربة التأويلية أن تتجاوز الإشكاليات المنهجية للخطاب الميتا نقدي؟

أولا: نقد النقد؛ المفهوم والاشتغال:

مذ أوجد الإنسان الكلام؛ أوجد كلاما حوله، من خلال الشرح، التقويم أو حتى التعليق، فلا ينفك النص الأدبي يخضع لقسطاس القراءة الفاحصة والمساءلة النقدية المشروعة، وفق الضوابط المنهاجية السليمة، وتبدأ المساءلة بنص نقدي ينظر في النص الأدبي كفعل إبداعي أول فحصا وتحليلا واستنباطا، من خلال علاقة إبستمولوجية قائمة على "الملاحقة الفاحصة والمستمرة، ما يجعل من النص الأدبي فعل إنشاء وتكوّن دائم، محكوم بالتغيير والتجديد" (الشندودي، 2016)، وبذلك تنشأ لدينا لغة واصفة تحاول الاقتراب من الأدب لفهم خبايا معانيه وميكانيزمات بنائه.

ولم ينجُ النص النقدي من طائلة المساءلة أيضا، فظهر نوع جديد من النقد يهتم بالنص النقدي ويجعل منه موضوعا له؛ حيث يقول (برادة، 1985): "اللغة الواصفة يمكن أن تصبح بدولها لغة-موضوع بالنسبة للغة واصفة أخرى تتولى تحليلها"، وقد تم إطلاق عدة تسميات على هذا الفتح الإبستمولوجي الجديد منها: نقد النقد، اللغة الناقدة، الميتا نقد،...إلخ، وهذه الأخيرة التي تحوي لاحقة "ميتا" وليدة الكلمة الإغريقية (Meta) التي تُرجمت إلى "ماوراء" أو "ما بعد"، وفيها يقول (مرتاض، 2005): "إن الميتا في استعمال العلوم الإنسانية تعني انضياف شيء أو علم إلى آخر أثناء المهامشة والمجاورة فيلحق شيء بشيء، أو يتسرب علم في علم، أو يتحصحص معنى في معنى آخر، ذلك لاقتضاء العلاقة المعرفية، فتصبح اللغة تتحدث عن اللغة"، وعليه؛ فإتباع كلمة "النقد" إلى كلمة "نقد" يعني إلحاق معنى بآخر؛ أي إلحاق نقد بنقد سبقه، ونفهم من هنا أن الميتا نقد هو نقد النقد، وهو نقد يجعل من النص النقدي موضوعا له ومادة يدرس مشروعيتها وسلامة إجراءاتها المنهجية، بغية فهم أو تأويل الأنساق المعرفية التي تتحكم في معالمها، وقد تعددت التعريفات التي قُدّمت في نقد النقد وتباينت

مفاهيمه باختلاف وجهات نظر الباحثين في تأصيله وتحديد ماهيته، ويمكن إرجاع هذه الاختلافات إلى "التوجهات الفكرية والنظريات التي يقتات منها هؤلاء النقاد" (بوعلام، 2018) بالإضافة إلى المنطلقات الإبستمولوجية والفلسفية التي يتبناها النقاد والمفكرون، وقد تولدت كلمة "نقد" من (Critique) التي تعد متفرعة بدورها من الفعل اليوناني (Krinein)، والذي يعني الحكم أو التفكير، وبذلك التصقت وظيفة إطلاق/إصدار الحكم بالنقد، حتى صارت كلمة النقد تعني الحكم، والحكم هنا هو "التمييز الذي يتيح الفصل بين الأشياء" (الزين، 2018)، ومنه؛ يمكن القول إن النقد يكتسي صفة الغربلة من خلال التمييز بين الحقيقي والمزيف، أو الجيد والرديء، وبالحفر في إرهاصات هذا المصطلح نجد أنه تشكل في بدايات القرن العشرين؛ إذ عُدّت محاولة (تزفيطان تودوروف "Tzvitan Todorov" "1939-2017") في كتابه: "نقد النقد" أول محاولة خاضت في هذا الميدان، فقد سعى في كتابه إلى استعراض وإيضاح بعض الأعمال النقدية من وجهة نظر قائمة على إعادة فحص كيفية التفكير في الأدب في الفترة الممتدة بين (1920 – 1980)، وبذلك عُدَّ (تودوروف) أول من استخدم هذا المصطلح.

ومن النقاد والمنظرين العرب الذي خاضوا في تحديد مفهوم نقد النقد نجد (جابر عصفور) الذي يرى أن نقد النقد هو: "قول آخر في النقد يدور حول مراجعة القول النقدي ذاته، وكذا فحصه" (عصفور، 1981) وبذلك فهو يرى أن نقد النقد قول على قول نقدي تتم فيه مراجعة مصطلحاته وبنيته التفسيرية والأدوات الإجرائية.

ويذهب (لحميداني، 2014) إلى أنه "نقد في مستوى آخر من الممارسة النقدية ... مرتبط بنقد الإبداع لا بالإبداع ذاته"، ويذهب (الدغمومي، 1999) إلى أنه: "بناء معرفي وظيفي يعمل بإستراتيجية واحدة وينتج معرفة تصب في مجرى المنهجيات، وتعمل باستراتيجية ليست أبدا باستراتيجية التنظير أو النظرية الأدبية، أو النقد، وإنما تستهدف من خلال معرفة طبيعة الممارسة النقدية (آلياتها، مبادئها،

غاياتها، معرفتها)"، ومن ذلك نستشف أن نقد النقد هو معرفة مستقلة بنفسها، ومكتفية بذاتها، وأنه " كيان معرفي مؤسس وجديد يتمثل لنا كنموذج ينبني على أسس وعناصر نظرية وأخرى إجرائية" (الشندودي، 2016).

ويذهب (قلقيلة، 1975) إلى أن نقد النقد هو: "تلك الكتب النقدية التي ألفها أصحابها مفندين به كتبا نقدية أخرى"، وبذلك فهو يحصر نقد النقد في الكتب النقدية التي انتقد فيها أصحابها كتبا نقدية أخرى.

أما (القسنطيني، 2009) فقد رأت أن نقد النقد هو: "خطاب يبحث في مبادئ النقد ولغته الاصطلاحية وآلياته الإجرائية وأدواته التحليلية"، وبذلك فهي تقترب من المفهوم الذي قدمه جابر عصفور في كون نقد النقد يبحث عن المبادئ التي تحكم النقد الأدبي، وتوضح خصائص لغته الاصطلاحية، ولم يبتعد (عبد الملك مرتاض) عن ذلك؛ إذ قال إن نقد النقد "شكل معرفي مكمل للنقد، وضابط لمساراته، ... فهو إذن تأصيل وتثمين" (مرتاض، 2005).

ويجمل (محمد، 2008) نقد النقد في كونه نوعا من المعرفة التي يتبعها النقد ليصل بواسطتها إلى إطلاق الأحكام النقدية المعللة، أما (توفيقي، 2012) فيورد مفهومه لنقد النقد بقوله: "مجال نقد النقد باعتباره اشتغالا إبستمولوجيا لغة واصفة للّغة الواصفة، غير أن هذه اللغة –اللغة الواصفة الثانية– تمتلك قدرة على ضبط كيفية اشتغال اللغة النقدية الأولى"، ومنه؛ فهو يرى أن الهدف المرجو من نقد النقد هو تقويم وتعديل مسارات النقد الأدبي وفق أدوات نظرية ومنهجية تميزه عن غيره من الخطابات الأخرى.

وبالنظر إلى نقد النقد عند الغرب نجد الناقد (إنريكي أندرسون إمبرت " Enrique Anderson "Imbert "1910–2000") يحصر نقد النقد في اختيار أعمال النقاد الكبار فقط دون غيرهم؛ حيث يقول

عن نقد النقد بأنه "إحدى الطرق التي تتمثل في اختيار نصوص عدد قليل من كبار النقاد فقط" (إمبرت، 1991)، ورغم هذا الصراع الفكري القائم منذ القدم، إلا أن نقد النقد حقل معرفي مازال في مرحلة التأسيس (أفقير، 2009).

وبالعودة إلى ملامح نشأة نقد النقد كمجال نقدي مستقل بذاته، سنجد له إرهاصات في الحقبة اليونانية –التي تعد بداية تاريخ الأفكار– من خلال تلك الآراء النقدية التي قدمها (أرسطو "Aristotle" "384 ق.م– 322 ق.م") حول نظرية المحاكاة (لأفلاطون "Plato" "427 ق.م– 347 ق.م")؛ حيث يرى (جاسم، 2019) أن "نظرية أرسطو في المحاكاة هي البذرة الأولى التي وصلتنا مما يمكن عدّه نوعا من نقد النقد النظري غير المباشر على نظرية أستاذه أفلاطون في المُثل"، ويرى (بوعلام، 2018) أن ما قام به المفكر الصيني (كونفيشيوس "Confucius" "551 ق.م– 479 ق.م") من جهود في مختلف الميادين هو البداية الحقيقية لهذا الميدان المعرفي، ولم يتبلور هذا العلم كميدان معترف به إلا في العصر الحديث مع كتاب نقد النقد لـ(تودوروف)؛ حيث يقول (مرتاض، 2005): "قد يكون تزفيطان تودوروف من أوائل من منح الإطار المنهجي لنقد النقد ورسخ له الأسس المعرفية"، أما عند العرب فقد مارسوا نقد النقد بمفاهيم أخرى كالنقد والسرقات الأدبية، ويعد كتاب (الفلك الدائر على المثل السائر) لـ(عز الدين بن أبي حديد "1190– 1258") –الذي علق فيه على كلام (ابن الأثير "1160– 1233") وغيره من القضايا– مما يندرج تحت مفهوم نقد النقد وإن لم يكن هذا النشاط في ذلك الوقت معروفا بهذا المصطلح (بوعلام، 2018)، أما (أصطيف، 1983) فقد أكد أن إرهاصات نقد النقد قد بدأت أواخر القرن التاسع عشر وتعززت بظهور كتاب (في الشعر الجاهلي) لـ(طه حسين "1889– 1973") كأول مشروع عملي يؤسس لبداية نقد النقد بيد أنه لم يستعمل المصطلح، وتوالت بعده عدة دراسات حاولت رسم بداية الوعي بجوهر الاختلاف بين النقد ونقد النقد، أما كمصطلح لدى العرب فقد عَدَّ (طبانة، 1986) (العقادَ

"1889- 1964") أولَ من أطلق تسمية نقد النقد على هذا اللون المعرفي الجديد مصطلحا والقديم كينونة؛ إذ صرح بأن (محمود عباس العقاد) كتب في موضوع العصبية والهوى والذاتية في النقد المعاصر وسماها "نقد النقد"، ورأى (العقادُ) في كتاباته ألا محيص من نقد النقد قبل تقرير قيمته في عالم الأدب والفن، وقبل الاعتماد عليه.

ومع تشكل معالم نقد النقد واستقلاله بآلياته –التي سنتحدث عنها لاحقا– دأب العديد من الباحثين على تحديد موضوعه ومساحة اشتغاله، ولا بد من التنبيه هنا إلى كون نقد النقد نشاطا معرفيا وُجد لتتبع النقد الأدبي ومدار حركته وطرائق اشتغاله، وهذا "ما يسمح له بتوسيع أفق عمله عبر رصد الحركات النقدية ومرجعيتها ونظرتها للعمل الأدبي، وما إذا كانت هذه النظرة صحيحة أم لا" (الشندودي، 2016)، وقد حدد (إمبرت، 1991) موضوع نقد النقد بقوله: "فك رموز مفاهيمهم الفردية عن العالم، ونظرياتهم عن الأدب، وقوائم قيمهم وأساليبهم؛ أي نصنع مع النقاد ما يصنعه النقاد مع الشعراء"، وهذا القول يصب في كون الخطاب الميتا نقدي يقوم على تناول النصوص النقدية وتقديم تفصيل لها من خلال التأويل والتفسير وبيان قيمها كالانتقاد والاحتجاج والتدليل، ليصل إلى نتيجة جامعة. (عميرات، 2017).

ويعبر (لحميداني، 2014) عن ذلك بقوله: "أما ناقد النقد فسيكتفي بتتبع رحلة الناقد بين النص والواقع، ولن يكون من شأنه أن يُعارض نوعية التأويلات أو المعطيات الإيديولوجية والواقعية المستخدمة في التحليل، بل سيهتم بمراقبة عمليات التفكير والتحليل والاستدلال، ومدى وضوح الفرضيات والنتائج، وانسجامها، وقدرتها على الإقناع بالتأويلات والدلالات المقترحة".

ومن جانب آخر ترى (الجرماني، 2012) أن نقد النقد يتجه نحو النصوص النقدية لقراءة المصطلح والمنهج والمفهوم والإجراء النقدي، إضافة إلى مساءلة النظريات الفكرية المؤسسة ومدى قدرة النقد الأدبي على قراءة النصوص الأدبية، ويتوسع (جاسم، 2019) في تحديد موضوع نقد النقد بقوله:

"لكل علم أو فرع من فروع المعرفة موضوعٌ يختص بدراسته، وإن موضوع نقد النقد يتضمن عنصرين مختلفين: أولهما النقد الأدبي في مستوييه النظري والتطبيقي، وثانيهما الأعمال الأدبية، ... وهذا يعني أن موضوع نقد النقد أوسع"، ونفهم من هذا القول أن رقعة الاشتغال لنقد النقد تتمدد لاحتواء الخطابين معا، إلا أن "نقد النقد يباشر وظيفته على النقد الأدبي قصد تأصيل وتثمين العمل النقدي" (بوعلام، 2018)، وهذا ما نجده عند عبد الملك مرتاض في قوله: "نقد النقد مكمل للنقد، ومهدئ من طوره، وضابط لمساراته" (مرتاض، 2005).

وحتى يصبح نقد النقد علما مستقلا بذاته، وقادرا على فرض شرعية وجوده التي تمنحه اعتراف الباحثين والدارسين وجب ترسيم حدوده وتحديد وظيفته التي قد تتداخل مع مفهومه، وقد حدد (الدغمومي) وظيفة نقد النقد في إعادة تنظيم المادة النقدية؛ دون إجراء أي تعديل على النص النقدي، وذلك باقتصار الأمر على مناقشة الأسس المنهجية والمنطلقات الفكرية، ومراجعة انسجام النتائج مع حقائق النص الأدبي المنقود من جهة، ومنطلقات النقاد من جهة أخرى" (قرقوي، 2016)، وفي السياق ذاته توضح نجوى القسنطيني أن "نقد النقد يعد مسعى يراد منه الوصول إلى البحث عن مقاصد النقد وتفسيره بقولها: "مشغل نقد النقد ومحوره هي النزعة إلى إنتاج معرفة بفلسفة نقد النقد وآلياته ومقاصده" (هارون، 2012)، ويمكن حصر وظائف نقد النقد في ما يلي:

- تفكيك النقد الأدبي لفحص العناصر الإيديولوجية في المزاعم الأدبية.
- الكشف عن طبيعة المؤثرات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي جعلت الناقد يتبنى منهجا نقديا دون سواه من خلال وضع عمل الناقد في سياق مناسب.
- القراءة مزدوجة الهدف، عن طريق المحاورة بالموافقة والاختلاف.
- تحديد الأنساق المضمرة التي جعلت الناقد ينحو نحو منهج نقدي دون سواه.

- الكشف عن صيرورة النقد الأدبي وتحويلاته.
- الربط بين العوامل السياقية الخارجية التي تحفز عملية التطور الأدبي، وتطور النقد الأدبي نفسه.
- العمل على إعادة تشكيل وعي القارئ، ليكون على بصيرة تتجاوز مسألة فهم القول النقدي إلى مسألة معرفة كيف قال الناقد ذلك.
- إنتاج علاقة جديدة معقدة بين القارئ والنص والنقد المكتوب عن النص.
- إثارة إشكالات تتصل بطبيعة النقد وإجراءاته ولغته.
- إنتاج معرفة بفلسفة نقد النقد وآلياته وغاياته.
- مراجعة مصطلحات النقد وبنيته التفسيرية وأدواته الإجرائية. (هارون، 2012).

وتذهب (قرقوي، 2016) إلى أن هناك تداخلا بين التعريف والوظائف، وأن كل هذا يصب كون نقد النقد دراسة مرتبطة بالإبستمولوجيا للنقد الأدبي تفسره وتكشف آلياته لتعود بالفائدة على متلقي النقد ومتلقي النص الأدبي على حد سواء.

ويشترك خطاب نقد النقد في موضوعه –النقد الأدبي– مع عدة خطابات أخرى كتاريخ النقد الأدبي الذي ينتهج "تقسيم أشكاله إلى عصور واتجاهات أو مذاهب، والتمفصلات التاريخية الكبرى" (الشندودي، 2016)، ولذلك وجب تحديد معالم وخصائص الخطاب الميتا نقدي لتمييزه عن غيره من الخطابات الأخرى من خلال توفر مجموعة من المفاهيم الفكرية والمعطيات المعرفية والمنهجية حتى تتحقق الغاية المرجوة منه، ومنها:

- الوعي الإبستمولوجي المرتبط بمرجعية محددة.
- المفاهيم النسقية الملائمة.

- اللغة النظرية الدقيقة التي تجنب الخلط في المفاهيم.
- القوة الاستدلالية التي تحقق المعقولية والمقبولية.
- الصيغ النظرية المعبر عنها، أو المعدلة لصيغ سابقة.
- الأدوات الإجرائية التي تتوخى إنتاج صورة مغايرة لحالة الموضوع.
- القواعد المستمدة من نظرية أو منهج أو علم محدد.
- وضوح الفرضيات والنتائج. (توفيقي، 2012).

ونستشف مما سبق أن نقد النقد حقل معرفي مستقل بذاته يشتغل –إبستمولوجيا– في تخوم النص النقدي والمنهج النقدي لتشكيل مقاربة منهجية تستمد مشروعيتها وفق آليات محددة، فما حدود هذه المقاربة؟

ثانيا: نقد النقد وحدود المقاربة المنهجية؛ كيف نمارس نقد النقد؟

ينبني نقد النقد على جانبين مهمين هما التنظير والممارسة، فكما يمكن أن يتعمق نقد النقد في البحث عن الأصول والخلفيات المعرفية للمناهج النقدية، فهو أيضا يلتمس البحث عن الكيفية التي أدت إلى طرح الرؤى المنهجية للناقد على مستوى التطبيق من أجل المساءلة والمناقشة والتقويم وإصدار الحكم وفق منهجية معينة، فنقد النقد التنظيري "دعوة إلى مناقشة المبادئ والخلفيات المعرفية والفلسفية للمناهج النقدية السائدة، مع التوجه في نهاية المطاف إلى وضع استراتيجية تهدف إلى تقديم البديل للمناهج قيد الدراسة" (بلعيد، 2020)، ومن أمثلة ذلك كتاب (نقد النقد، رواية التعلم) لـ(تزفيطان تودوروف) الذي "عالج الأفكار الأدبية والنقدية في القرن العشرين وميز فيها بين الأصلح والأصح، وحلل فيها بعض التيارات الإيديولوجية انطلاقا من تحديد الأسلم منها، مقدما بعض البدائل الممكنة" (تودوروف، 1986)، أما نقد النقد فهو "نقد يقف عند حدود الوصف الدقيق لسيرورة عمليات التحليل عند نقاد الأدب، من

خلال معرفة مدى وضوح الرؤية المنهجية المعتمدة وطبيعة الممارسة النقدية المتبعة"، وكمثال على ذلك نجد مقالا للفرنسية (جوهانا ناتالي "Johanna Natali") تقول فيه: "نحن إزاء قراءتين ... وقراءة ثانية تعنى بكيفية دراسة الأعمال النقدية معززة بأسئلة حول المنهجية الملائمة للتعامل مع النص النقدي" (بلعيد، 2020).

وتتأسس الطروحات النظرية لنقد النقد انطلاقا من ضوابط تحليلية ومراحل منهجية متفق عليها من طرف المشتغلين على هذا الحقل المعرفي، ومنها تلك الأطر المنهجية التي أقرتها (جوهانا ناتالي)، في مقال لها حول دراسات نقدية لـ(شارل بودلير "Baudelaire Charles" "1821- 1867")، تمثلت في: فحص أهداف الناقد ورؤيته، تحديد المتن المدروس، التحليل المعلن الذي ينبني ويتوزع إلى خطوات هي: الوصف، التنظيم، التأويل والتقويم. (الشندودي، 2016).

وقد أشار (لحميداني، 2014) بغية استثمارها في تشكيل مقاربة الخطاب النقدي وتفكيك مكوناته في قوله: "والواقع أنها حددت فيه بعض المبادئ الأولية التي ينبغي أن يتوفر عليها كل دارس للنصوص النقدية ... لذلك وجدنا من الضروري الاستفادة من هذه المبادئ لأنها ستساعدنا في ضبط التعامل مع دراسات نقد الرواية"؛ (حميد لحميداني: المرجع السابق، ص 17). حيث عمد من خلال ذلك إلى تحديد مجموعة من المبادئ الأولية والضوابط الإجرائية التي من شأنها أن تمنح نقد النقد استقلاليته عن النقد الأدبي، ويظهر ذلك في قوله: "فإننا نشعر بالحاجة إلى ضوابط إجرائية لما سميناه بمنهجية معرفة المعرفة، تمكننا من التعامل المباشر مع النصوص النقدية نظرية كانت أم تطبيقية، بإيجاد أجوبة للأسئلة التالية:

- كيف نستطيع تحديد المنطلقات المنهجية لنقاد معين سواء صرح بها أم لم يصرح؟

- ما حدود المتن المعتمد من قبل الناقد في التحليل؟
- ما وسائل الإقناع المعتمدة؟
- كيف يبني خطة بحثه وتحليله؟
- ما الهدف أو الأهداف الأساسية للبحث؟ وكيف يتم اكتشافها؟
- هل هناك انسجام أو عدم انسجام بين الجانب النظري، والجانب التطبيقي؟ وكيف تمت البرهنة على ذلك؟
- هل تمكن الناقد من تقديم معرفة إضافية بالنصوص المدروسة؟" (لحميداني، 2014)

ونستنتج من ذلك كله أن (حميد لحميداني) قد كشف ثغرة الضعف المنهجي لنقد النقد وحاول سد هذه الفجوة المنهجية باقتراح مجموعة خطوات تساعد الباحث في تحديد معالم الطريق البحثي بتمشٍ منهجي سليم في مقاربته النصوصَ النقدية؛ إذ إنه قدَّم أدواتٍ إجرائية سعى من خلالها إلى "وضع منهجية عامة قابلة للتطبيق بالنسبة لكل ممارسة في نقد النقد؛ لأنها تتساءل عن مدى صلاحية المناهج المتبعة في معالجة الإبداع، وتبحث في البعد الإبستمولوجي لنقد الأعمال النقدية" (لحميداني، 2014) ، وهذه مهمة صعبة قد كلف (لحميداني) نفسه بها، لأنها قضية ترتبط في جوهرها بصياغة "منهج"، وهذا يعني أننا أمام أدوات إجرائية أخرى، تعمل على صياغة آليات يتشكل بها الخطاب الميتا نقدي وتتحدد من خلالها عملية القراءة، وقد أجملها في: الوصف، والغاية التي جعلت من الوصف آلية مهمة –في نظر (لحميداني)– هي أن يعمد الناقد إلى التأمل في النص المدروس، و"محاولة تفكيكه إلى بعض المظاهر الدالة التي ينظر إليها باعتبارها عناصر ترسم صورة متكاملة عن مجموع العلاقات والدلالات فيه" (لحميداني، 2014) وذلك قصد وضع الانطلاق من أرضية الوصف للوصول إلى مخرجات التأويل، كما يعد لحميداني "التقويم الجمالي" أداة مهمة أيضا؛ لأن الثقافة العربية تهتم بالجانب الجمالي الفني

أثناء قراءة النصوص، إضافة إلى التأويل الذي عده محطةً ضرورية، إضافة إلى ما أطلق عليه (لحميداني) "اختيار الصحة" وهي مرحلة يتم فيها "إعطاء فكرة عن القيمة المعرفية المتوالدة عن بنيان تحليلي معين لما فيه من نظام وصفي ... ولا تتصور أن هذه الأداة ستكون آخر حلقة في عمل نقد النقد، بل إنها ينبغي أن تصاحب جميع خطوات الدراسة" (لحميداني، 2014).

وقد أشار إليها (عبد الواحد لمرابط) بكونها تنظر إلى النص النقدي "بصفته برنامج بحث علمي فيه بعض من مقومات الخطاب العلمي، وفيه ما ينزاح عن العلمية؛ فهي تفحص المنطلقات والمراحل والنتائج، دون أن تقصي أو تعدل، وإنما تبحث فقط عما يقوي تلك المنطلقات أو ما ينقضها" (لمرابط و آخرون، 2015).

كما اقترح (جاسم، 2019) ما أطلق عليه منهجا وصفيا استقرائيا دعا من خلاله إلى الالتزام بمجموعة من الشروط الموضوعية انطلاقا من قراءة تتوخى الدقة بقوله: "لكي نرتقي بخطابنا النقدي إلى المستوى العلمي والمنهجي المنشود، لابد من اعتماد جملة معايير معرفية، تتمثل أساسا في: وضوح المنهج، دقة أحكام الناقد المستندة إلى وقائع نصية مأخوذة من النص المنقود وعدم تناقض هذه الأحكام، دقة تصنيفاته للظواهر النصية المدروسة، دقة استخدام المصطلحات المتخصصة، سلامة اللغة، وتناسق استراتيجيات القراءة المعتمدة"، ويجمل (التمارة، 2017) إجراءات محاورة النصوص النقدية في ثماني خطوات منهجية كالتالي:

- اقتراح مدخل ملائم لموضوع النص النقدي.
- توضيح الهندسة البنائية للنص النقدي.
- دراسة الهندسة البنائية وكشف أهداف النص النقدي وغاياته.

- توصيف محمولات النص النقدي.
- ضبط الرؤية المنهجية للنص النقدي
- إظهار مرجعية مفاهيم النص النقدي.
- تحديد المتن أو الظاهر المدروسة.
- إبراز عناصر الممارسة النقدية.

وإن هذه الخطوات المنهجية من شأنها أن تسعف الباحث على التمشي المنهجي السليم في دراسته وتجعله يؤجل إطلاق أحكامه إلى بعد القراءة الفاحصة للمتن المدروس.

ونظرا لاتسام نقد النقد بالتنوع والتعدد فقد اقترح (عبد الحكيم الشندودي) خطاطة تتلاءم مع جل الموضوعات في قوله: "الواقع أن نقد النقد كممارسة فكرية لابد له من منهج يباشر به موضوعه، لكن عليه أن يتحلى بجملة من الصفات على رأسها: الحياد والتجرد تحقيقا للموضوعية العلمية"، فـ(الشندودي) هنا يدعو إلى توخي الموضوعية العلمية من خلال الحياد والتجرد حتى لا يقع نقد النقد في طائلة المغالطة المنهجية أو "الوقوع في أسر المرجعيات الإيديولوجية" (الشندودي، 2016).

ورغم اختلاف خطاب نقد النقد عن خطاب النقد الأدبي في بعض السمات، إلا أن هذا الأمر لا ينفي وجود سمات يشترك فيها مع النقد الأدبي خاصة طبيعته المعرفية؛ حيث نجده يحتاج إلى ضوابط إجرائية ومبادئ وخطوات منهجية تسمح له بدراسة النصوص النقدية ضمن أسئلة من قبيل: كيف ندرس عملا نقديا؟ ما المنهجية الملائمة للتعامل مع الأعمال النقدية؟ (بلعيد، 2020)، وهذا ما قد يحيل إلى التساؤل عن فاعلية هذه الآليات الإجرائية لنقد النقد كونها مازالت كلها تعد مقترحات تلقى القبول والرفض في الساحة النقدية العربية.

ثالثا: في ممارسة نقد النقد؛ التأويل وتفتيت النص النقدي:

إن الحديث عن التأويل وما يقاربه من مصطلحات يسوقنا –حتما– إلى استجلاء كنهه كمفهوم لاهوتي وكمصطلح في النقد الأدبي وكآلية تولدت عن الفلسفة استعارها نقد النقد لتحقيق ما يناط به لخلخلة النصوص النقدية، وهذه المصطلحات –إضافة إلى الفهم والتفسير والترجمة– وردت في التراث الفلسفي التأويلي يشوبها التناقض والتداخل أحيانا بسبب التضمينات الدلالية التي ينحوها كل مصطلح، أو بالنقل من لغة إلى لغة وما يشوب ذلك من تشويش أو غموض، وقد طرح مصطلح التأويل كدلالة على عملية معرفية ونشاط ذهني الكثير من الجدل إطلاقا وتحديدا، هذا المصطلح الذي تأرجح تاريخيا بين الإرث الحضاري والراهن المتشعب والزاخر بالتحولات والصراعات الفكرية، وساد مصطلح التأويل في الممارسات النقدية بعد أن ارتبط في نشأته الأولى بالنص المقدس، والتأويل في اللغة "من آل يؤول أولا، ومآلا؛ بمعنى رجع وارتد، وأول الكلام: دبره وقدره" (ابن منظور، 1999)، والتأويل في معجم العين "تفسير الكلام الذي تختلف معانيه" (الفراهيدي، 1980)، فالتأويل في معناه اللغوي يعني محاولة للرجوع باللفظ إلى دلالته الأولى وتفسيره، وقد فصل (ابن فارس "940– 1004") في مقاييس اللغة المفهوم اللغوي للتأويل أكثر بقوله: "أول: أصلان هما ابتداء الأمر وانتهاؤه، وسمي الأيلُ أيلًا؛ لأنه يؤول إلى الجبل وينتهي إليه ليتحصن فيه، وآل: رجعَ، والإيالة: السياسة؛ لأن مرجع الرعية إلى راعيها، وتأويل الكلام: عاقبته وما يؤول إليه" (ابن فارس، 1979)، أما التأويل في الشريعة فهو "صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان المحتمِل يراه موافقا للكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (سورة يونس، الآية 20)، فإن قيل كاد المراد بالآية إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا، وإن قيل إنه إخراج المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل كان تأويلا" (السيوطي، 1973). فالتأويل بذلك ينحو منحى تأصيليا؛ أي إرجاع المعنى إلى أصله، وفي هذا السياق يقول (نصر

حامد أبو زيد): "إذا كانت كلمة تأويل تعني الرجوع إلى الأصل، وتعني أيضا الوصول إلى الغاية والعاقبة، فإن الذي يجمع بين الدلالتين، هو دلالة الصيغة الصرفية (تفعيل)، وهي دلالة أغفلها اللغويون في تحليلهم المعجمي، لذلك يمكن القول إن التأويل حركة بالشيء أو الظاهر إما باتجاه الأصل أو في اتجاه الغاية ... لكن هذه الحركة ليست مادية بل هي حركة ذهنية عقلية في إدراك الظواهر" (أبو زيد، 1990)، أما في معناه الاصطلاحي فالتأويل هو: "فن الفهم، والبحث في الشروط التي تجعل الفهم ممكنا ... إنه محاولة لفهم لا يقف عند حدود تعيين الأشياء في دلالاتها المباشرة، وهو انخراط في صلب الرمزيّ والثقافي انطلاقا من معانٍ إضافية لها القدرة على التدليل والإحالة على قيم دلالية ممكنة خالقة لسياقاتها الخالصة" (بريمي، 2010)، وهذا معناه أن التأويل يسعى للبحث في المعاني الخفية انطلاقا من الظاهرة بفك رموزها. ويميز (محمد عابد الجابري) بين عدة أنواع للقراءة، ومنها النوع الأخير وهو (القراءة التأويلية) أو (القراءة ذات البعدين)، وهي "قراءة تعي منذ اللحظة الأولى كونها تأويلا، فلا تتوقف عند حدود التلقي المباشر، بل تريد أن تسهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي تحملها أو يتحملها الخطاب" (الجابري، 1985)، وهذا يعني أن المتلقي يتعامل مع النص وهو محمل بزاده الفكري، وبذلك "تسير العلاقة بين النص والمتلقي في اتجاهين متبادلين (من القارئ إلى النص ومن النص إلى القارئ" (هيمة، 2011).

وقد ذهب (شلايرماخر "Schleimacher" "1768- 1834") إلى أن التأويل هو "طريقة ممارسة القارئ نشاط الفهم بقوله: التأويل فن امتلاك كل الشروط الضرورية للفهم" (حساني، 2012)، وذهب (باري، 2010) إلى أن "التأويل فعل قرائي يروم بناء المعنى" وهذا الفعل القرائي وجب أن يستند إلى أدوات ومرجعيات وقواعد تتفاعل مع ثقافة القارئ، وفي ذلك يقول (عبد الله العروي) "تستلزم العملية التأويلية معاشرة واستئناسا ثم استنباطا ثم مقايسة تتعاون فيها قوتا الذوق والعقل" (العروي، 1990)، أما

(حرب، 2007) فقد ذهب إلى أن التأويل "هو فن الفهم، بل فهم الفهم" ومن خلال هذه التعريفات السابقة يمكن القول أن التأويل هو فعل/ نشاط ذهني يحتاج إلى دراية ومعرفة تسهم في ترجيح أحد المعاني واستنباط المعاني المخفية، وقد فرق الباحثون بين التأويل والتأويلية؛ إذ عدوا التأويل ضرب من ضروب "استخلاص المعنى الكامن انطلاقا من المعنى الظاهر" أما التأويلية فتختص بالنص الديني بوصفه "أحد المجالات الحافلة بالرموز والاستعارات التي تخلو في كثير من الأحيان من الغموض والتناقض الظاهري، كذلك تنصب على نصوص مأخوذة من الفلسفة والأدب والشعر والفن والقانون" (جلال الدين، 1998).

أما الهرمنيوطيقا (Hermeneutics) وهي أكثر المصطلحات التباسا مع التأويل بسبب إشكاليات الترجمة حتى غدت من المصطلحات الزئبقية التي تتفلت كلما حاول الباحثون ملامستها؛ لأن الفعل الدلالي قد أثر في هذا المصطلح، وتراكمت المفاهيم المختلفة والدالة عليه، ولا يمكن فهم الهرمنيوطقيا إلا في سياق منظومتها المعرفية التي نشأت فيها وانطلقت منها، وهي الفلسفة اليونانية التي مازالت تكتسي مكانة مركزية في تاريخ العلوم (الكردي، 2007)، وتأتي كلمة هرمنيوطيقا من الفعل اليوناني (Hermeneuin)، أو من الاسم اليوناني (Hermeneia)، وتعني التفسير، ويبدو أن كليهما متعلق لغويا باسم الإله اليوناني (هرمس– Hermes)، وهو "إله يوناني عرف عند الأفلاطونيين الجدد بمثلث العظمة، ابن زيوس ومايا، أظهر منذ طفولته نبوغا ومكرا، وكان محتالا ومقنعا، ... وأصل لفظة هرمس كومة من الحجارة". (طلبة، د ت)، وقد كان بمثابة وسيط بين الآلهة والبشر، يفهم لغة الاثنين، ويحاول نقل أفكارهم الغامضة بأية وسيلة حتى ولو استخدم الحيلة والكذب في ذلك (مصطفى ع.، 2008)، وهذه الخصيصة هي واحدة من جملة الخصائص التي أورثها (هوميروس "Homer" "القرن 9 ق.م – القرن 8 ق.م") في وصفه له، كونه الوحيد القادر على عبور البون الفاصل بين الآلهة والبشر، والنقل بلغة واضحة ومفهومة (جاسبر، 2007)، وهي الخصائص التي نجدها في الهرمنيوطيقا من حيث إشارتها

إلى استجلاء المعنى الخفي.

وقد تعددت تعريفات الهرمنيوطيقا وتنوعت بين تعريف وترجمة، وارتبطت بمصطلح التأويل في الدراسات الغربية؛ حيث نجدها تدل على ممارسة فكرية يراد بها "فن التفسير وتفسير النص، من خلال السعي إلى كشف معنى الخطاب بوصفه وسيطا باستخدام الشرح والتوضيح لمضمونه" (السيحاني، 2015)، ويذهب (عادل مصطفى) إلى أن الهرمنيوطيقا "تشير إلى التفسير الذي يكشف عن شيء متوار ومستور داخل النص يعجز الفهم العادي عن بلوغه، والمسفر في قراءته لنص ما يدرك أنه يشكل وسيطا يشيد جسرا للتواصل بين عالمين: أحدهما عالم النص الغامض المبهم، وثانيهما عالمنا الذي نعيش فيه ونألفه... وهي مجموعة من المعارف والتقنيات التي تسمح باستنطاق العلامات اللغوية، وكشف معانيها، وتقتضي الهرمنيوطيقا جهدا تأويليا؛ لأنها تفترض أن العلامات اللغوية والخطابات ليست شفافة، وأن كل معنى يختزن معنى آخر أعمق وأرفع منه، ينبغي الكشف عنه" (مصطفى ع.، 2008)، ويرى (مرتاض، 2003) أنها "استنباط لمعنى النص أو معنى اللغة"، ونفهم من كل هذه التعريفات أن الهرمنيوطيقا أنها تدل على تأويل النص، ومحاولة فهمه واستكناه مضمراته المتخفية، وفك شيفراته.

وفي العصور الوسطى فقد اقترن لفظ الهرمنيوطيقا بعلم اللاهوت للدلالة على "فن التأويل" وترجمة الكتاب المقدس بدقة، ويعد (أوغسطين "Augustin" "354- 430") أحد آباء الكنيسة الأولى، ومع بداية حركة الإصلاح البروتستانتي بزعامة (مارتن لوثر "Martin Luther" "1483- 1546") عرفت الهرمنيوطيقا انطلاقة جديدة برفضها التأويل الرمزي، والعودة إلى حرفية الكتابات المقدسة، فوصف لوثر القراءات الرمزية بالقمامة، وأكد على إطلاق حرية القارئ في التعامل مع النص الإنجيلي، والتحرر من التقليد اللاهوتي (غادامير، 2006)، ومع بدء عصر الأنوار كان للكوجيطو الديكارتي –أنا أفكر إذن أنا موجود– أثر حاسم في رسم حدود فاصلة بين العلم المقدس والعلم الدنيوي وترسيخ الإيمان بقدرة العقل

على الفهم دون معونة الإله؛ إذ "يمكننا الآن ومن خلال تفكيرنا المستقل عن الله أن نفسر ونعرف أنفسنا ونعرف وجودنا والعالم الذي نعيش فيه" (جاسبر، 2007)، وقد ذهب (بول ريكور "Paul Ricœur" "1913- 2005") إلى أن هذه الطروحات لم تولد إلا من خلال "الجهد المبذول لرفع تفسير النصوص المقدسة وفق اللغة إلى مرتبة التقنية، بمعنى قواعد تساعدنا على بلوغ فهم صحيح وصائب لا مجرد تجميع عمليات لا ترابط بينها" (ريكور، 2004)، وبهذا نجد أن مصطلح الهرمنيوطيقا ارتبط في مجمل الدراسات بدراسة الكتاب المقدس، ثم أصبحت الهرمنيوطيقا كفن للفهم وعلما لتأويل كل النصوص وأساس الفيلولوجيا بعد اقتصارها على النصوص القديمة المقدسة، على يدي (شلايرماخر) الذي أرسى أسس التأويلية الفيلولوجية نهاية القرن الثامن عشر، وجعل استعادة الدلالة هدفا له.

وبالعودة إلى سياق نقد النقد، نجد (مصطفى ع.، 2009) تذهب إلى أن التأويل هو: "مفهوم إجرائي عُرف في تقنيات القراءة وأدوات فهم النص وآليات إفهامه، وتباين معانيه منذ أقدم العصور،... وهو مفهوم ينبغي أن يندرج ضمن الإجرائية والآلية لا ضمن المذهبية"، وفي السياق ذاته يعبر (هيمة، 2011) عن انتقال التأويل من حقل فحص وفهم النصوص داخليا إلى ربطها بسياقها العام خارجيا، وأنه يطمح إلى تجاوز التصور الكلاسيكي لفهم النصوص ومستويات الحقيقة والإبداعات الفنية والجمالية، وبذلك يتكشف أمامنا هذا التحول الذي انتقل به التأويل كمصطلح إلى النقد الأدبي، والتأويل كآلية انتقلت من الفكر الفلسفي إلى نقد النقد من خلال القراءة التفاعلية التي تعد ضربا من ضروب محاورة النص، ولعل أهمية هذا التفاعل في القراءة التأويلية هو ما جعل (نورمان هولاند "Norman Holland" "1927- 2017") يرى أن التأويل "تفاعل شخصي بين هوية القارئ والنص ... وتفاعل القارئ مع النص هو الجانب الآخر لعملية التفاعل الشاملة التي نعدها آلية من آليات القراءة، ونقصد التفاعل بين النص والقارئ في شكل حوار متبادل بينهما، فالنص مخاطَب ومتحدث في الوقت نفسه، يخاطبه القارئ ويتحدث

إليه" (ريكور، 2003)، وهذا جوهر أساسي في عملية قراءة النصوص النقدية في مسار نقدها؛ إذ إن التأويل والمحاورة المفضية للتأويل من آليات نقد النقد التي تتنوع وتتعدد بسبب وجود عدد من الاعتبارات الفكرية التي وقفت في طريق تحليلات ناقد النقد على رأسها غياب رؤية منهجية، وهذا ما أورثته إلى اليوم حداثة هذا المجال المعرفي، والمقصود هنا هو حالة القلق المنهجي –كما يصفها (عمر زرفاوي)–، بسبب تمايز الخطاب الميتا نقدي عن الخطابات النقدية الأخرى، فطبيعة القراءة فيه "ترتبط بتشريح نقد الإبداع الأدبي لا بالإبداع الأدبي ذاته" (بلخير ، 2021)، وقد كان لتراكمية هذه المفاهيم والرؤى أثر بالغ في صناعة محطات وتشكيل مسار تحولات تبني فيها كل محطة مقولاتها على ما خلفته المحطات السابقة، فارتحل الفعل التأويلي عبرها بين الدين والفلسفة والنقد، حتى تشكل التأويل كمفهوم فلسفي ونقدي له جذوه الموغلة في تاريخ العلوم وأصبح من أبرز الممارسات الفلسفية والإجراءات اللازمة في كل قراءة أو تحليل.

وتعد تجربة (حميد لحميداني) –وقد سبق الحديث عنها– من الرؤى النقدية التي حاولت الإحاطة بهذه الإشكالية، والتي أقر فيها أن المناهج التي يقرأ بها الأدب لا تصلح لقراءة النقد، بقوله: " إن الموقع الطبيعي لناقد النقد هو أن يتخلى عن تبني أحد مناهج نقد الإبداع ... لأن المجال الأساسي لبحثه ليس معرفة الأدب، بل معرفة الكيفية التي نعرف بها الأدب" (لحميداني، 2014)، مثل ما ذهب إليه (محمد برادة) من خلال تطبيقه البنيوية التكوينية في مقاربة النصوص النقدية لـ(محمد مندور) في أطروحته، رغم غياب إبدال معرفي (براديغم) يبرر نقل البنيوية التكوينية من مقاربة النص الأدبي إلى مقاربة النص النقدي.

وقد انتهج (لحميداني، 2014) ما أطلق عليه "الوصف البنائي" في مقاربته النصوص النقدية، ويظهر ذلك في قوله: "يتضح لنا أن نقد النقد سواء في جانبه النظري أو التطبيقي مدعو إلى استخدام

أداة الوصف، فهي وسيلته الأساسية للنظر في الأعمال النقدية ... وكانت دراستنا محكومة باعتماد الوصف خدمة لنظرية المعرفة في مجال البحث في نقد النقد"، فـ(حميد لحميداني) يقر الوصف كآلية لنقد النقد وأنها مفتاح لولوج تحليل النصوص النقدية، غير أنه سرعان ما يقر بعدم جدوى الوصف وعقمه واجتراره للمعطيات نفسها بقوله: "إن حياد الوصف كثيرا ما يقود إلى إعادة إنتاج المادة الموصوفة، بطرائق أخرى مثل تقديم الخلاصة أو الشرح والتوضيح، ونكون عندئذ أمام تحصيل ما قد حصل" (لحميداني، 2014) ، وكان منبع هذا الطرح الأخير هو تساؤله عن كيفية تحويل الوصف المحايد إلى ممارسة تحليلية للأعمال النقدية وعدم جدواه في ذلك؛ لأن الوصف "يقتضي نقل الموضوع من صورته اللغوية الأصلية إلى صورة لغوية ثانية تسعى لأنه تكون مطابقة للأصل وإن تدخلت أحيانا في إعادة هيكلة عناصره ومستوياته" (بلخير ، 2021).

من خلال ما سبق نجد أن الوصف يجعل الخطاب الميتا نقدي تابعا للنقد الأدبي مؤجلا استقلاله كحقل معرفي، ومعيقا لفعالية إطلاق أحكام مؤسسة، وهذا ما يضع نقد النقد أمام حتمية البحث عن بدائل تسعف ناقد النقد لتقديم أحكام مؤسسة تنبني على فكرة تجاوز الملموس والتنقيب في الأعماق كفكرة أساسية في الخطابات الميتا نقدية، ولأن نقد النقد علم ناشئ، وحتى "يتخلص نقد النقد من عقم الوصف لا بد أن يستفيد من التأويل لمنح الفرصة بتقديم معرفة جديدة" (زرفاوي، 2021)، ولابد له من استعارة آليات خادمة له من علوم مجاورة له في إطار تكامل المعارف كالنقد والفلسفة، وأولها التأويل الذي يعزز مشروعيته في قراءة النص انطلاقا من كون التأويل يتخذ شكلين: أحدهما ظاهري والآخر باطني، وهذا يفرض علينا تبني التأويل للكشف عن هذا المعنى الباطني، ويغدو التأويل فعلا شاملا يستعين بمختلف المعطيات اللغوية والفكرية للكشف عن دلالة النص (هيمة، 2011)، وهذا ما ذهب إليه أيضا (جابر عصفور) بجعله نقد النقد ممارسة هرمنيوطيقية، "تعود فيه الذات الناقدة إلى موضوعها النقدي بالمحاورة،

من خلال مراجعة المصطلحات والبنية المنطقية والمبادئ الأساسية والفرضيات الأساسية والأدوات الإجرائية" (عصفور، 1981)، وكل هذا يتم من خلال آلية التأويل القادرة على تجاوز المعرفة المطروحة وخلخلة النص النقدي والبحث في شقوقه عن دلالات جديدة، ويقول (عبد الغني بارة) أن هذه المحاورة "تزيد من ثراء الدلالة التي ستولد في ثوب نص جديد بعد الفراغ من العملية، لأن النص سينفتح ويسمح بملامسة ما يخفيه في باطنه، وبذلك يلتقي الأفقان: أفق القارئ وأفق النص، فتكون الولادة لمشروع نص جديد، فالتأويل إذا هو الذي فتح هذا الحوار الخلاق بين النص وقارئه" (بارة، 2005)، ونجد موقف (عبد الغني بارة) واضحا هنا؛ إذ إنه يدعو لتبني التأويل في مقاربة النصوص كونه الآلية الخلاقة التي تثري القراءة النقدية بدلالات جديدة وتسهم في تطويع النص وانفتاحه على ما يستبطن من معان خفية، ولكن الناقد ذاته ينبه إلى أن التأويل "فن صعب المراس" (ناصف، 1997) وأن القراءة التأويلية لن تكون سهلة كما قد يتصورها القارئ البسيط؛ إذ "يتطلب تمرسا وفضاء معرفيا أرحب، حتى يستطيع القارئ استمالة النص واستدراجه وفك شفراته" (بارة، 2005)، وعملية فك شيفرات النص والوصول إلى طبقات المعاني العميقة ورصد الشقوق المتخفية لا يمكن لآلية الوصف الوصول إليها بأي شكل، كونها لا تستطيع قهر تمنع المعنى الكامن في النص، إلا من خلال الاستعانة التأويل كآلية فارقة في قراءة الخطابات النقدية.

ويمكن أن نقف هنا على حقيقة هي أن التأويل –كآلية– فاعل في تحريك دواليب المعاني وتمكين الناقد من التنقيب والغوص في طبقات المعاني واستخراج دلالات جديدة منها، وأن الوصف عقيم لا يقدر على هتك حرمة النص و"جعله جوادا معطاءً، يجود على كل من يقبل عليه" (بارة، 2005) ويدعو (عمر زرفاوي) –فيما أسماه "الحفريات التأويلية"– إلى الاستعانة بالأركيولوجيا الفوكوية التي تعين الناقد على زحزحة الفهوم السابقة، قبل تقديم القراءات البديلة، والبحث في الأصول والمرجعيات في الخطابات

النقدية عن طريق استثمار الجينيالوجيا، وأن تركيبهما معا يسمح لنقد النقد بتجاوز عقم الوصف، وتقديم البدائل التي يخفيها النص داخل تشققاته المليئة بالتوترات الدلالية بعد التموضع داخل الخطاب لتفجير بنياته تأويليا. (زرفاوي، 2021).

خاتمة:

وعلى سبيل الختم نورد النتائج المتوصل إليها في النقاط التالية:

- مهما بلغت قيمة النص النقدي فلا بد أن يوضع تحت طائلة المساءلة والمراجعة النقدية.
- يسعى الخطاب الميتانقدي إلى دراسة الخطاب النقدي كموضوع له، بالنظر في مشروعيته المنهجية وسلامة إجراءاته وآلياته التطبيقية، بغية فهم وتأويل الأنساق المعرفية التي تتحكم في معالمها.
- نقد النقد حقل معرفي مستقل بنفسه، ومكتف بذاته، وكيان جديد تأسس كنموذج يهدف إلى تقويم وتعديل مسارات النقد الأدبي وفق أدوات نظرية، ومفاهيم نسقية ووعي إبستمولوجي مرتبط بمرجعية محددة وقوة استدلالية تميزه عن غيره من الخطابات المقاربة له.
- رغم الجهود الكبيرة المبذولة في حقل نقد النقد إلا أنه ما زال يعد حقلا معرفيا فتيا في مرحلة التأسيس يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي لإجلاء مصطلحاته وآلياته والمفاهيم المرتبطة به.
- يضطلع نقد النقد بعدة وظائف أبرزها تفكيك النقد الأدبي، وفحص العناصر الإيديولوجية للكشف عن الأنساق المضمرة والمؤثرات التي أدت إلى تبني النقاد منهجا معينا دون سواه، إضافة إلى العمل على إعادة تشكيل وعي القارئ بإثارة إشكالات متصلة بجوهر النقد وإجراءاته، ومراجعة مصطلحات الخطاب النقدي وبنيته التفسيرية، لإنتاج معرفة بفلسفة نقد النقد وآلياته.
- ينبني نقد النقد على معايير معرفية، تتمثل أساسا في: وضوح المنهج، دقة الأحكام والمصطلحات

المتخصصة.

- التأويل كمصطلح شابه الكثير من اللبس والجدل والترحال بين العلوم والمعارف.
- التأويل نشاط ذهني يتطلب دراية لترجيح معنى معين وفق رؤية مشروعة.
- تستلزم عملية التأويل –كفعل قراءة– مجموعةً من الأدوات والمرجعيات كالاستنباط والمقايسة.
- الوصف كآلية من آليات نقد النقد يتميز بالعقم والحياد لأنه يجتر المعطيات نفسها ويقود إلى إعادة إنتاج المادة المدروسة ولا يقدر على خلخلة الأعماق، وإنما يعمل على تأجيل استقلال نقد النقد كحقل معرفي ويبقيه حبيس وصاية النقد الأدبي.
- الوصف آلية مهمة لكنها لوحدها تعيق سيرورة وفاعلية نقد النقد.
- الوصف يكتفي بالظاهر والتأويل يعمد إلى الباطن ويستكشفه.
- حتى يتخلص نقد النقد من عقم الوصف وجب عليه الاستفادة من التأويل.
- يستعين التأويل بعدة معيطات للكشف عن الدلالات المخفية داخل الشقوق والفجوات النصية.
- التأويل يساعد في تجاوز الملموس/المعاني الظاهرة ببلوغ المعاني البعيدة وتقديم معرفة جديدة بدل إعادة صياغة المعرفة المطروحة.
- التأويل يزيد من ثراء الدلالة؛ لأنه آلية خلاقة تعمل على تقديم البدائل، وتفكيك البنيات المشكلة للخطاب النقدي، والقبض على الحقائق التي تلوح من خلف النص ولا تتكشف للقارئ في مرحلة الفهم.
- لا يجب إطلاق العنان للتأويل.

المصادر والمراجع

❖ **القرآن الكريم برواية ورش.**

1. أبو الحسن احمد القزويني الرازي ابن فارس، عبد السلام هارون. (1979). مقاييس اللغة. لبنان: دار الفكر.
2. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي ابن منظور. (1999). لسان العرب (الإصدار ج1، المجلد 3). بيروت: دار إحياء التراث.
3. آراء الجرماني. (2012). اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية (المجلد 1). لبنان: منشورات ضفاف.
4. أسامة عميرات. (2017). الآليات المنهجية للكتابات الميتا نقدية – بحث في اشتغال نقد النقد في الخطاب العربي المعاصر–. باتنة، الجزائر: كلية اللغة والأدب العربي والفنون جامعة باتنة1.
5. الخليل بن أحمد الفراهيدي. (1980). كتاب العين (الإصدار ج2). (مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، المحررون) العراق: دار الرشيد للنشر.
6. إنريكي أندرسون إمبرت. (1991). مناهج النقد الأدبي. (الطاهر أحمد مكي، المترجمون) القاهرة: مكتبة الآداب.
7. باقر محمد جاسم. (مارس, 2019). نقد النقد أم الميتا نقد –محاولة في تأصيل المفهوم–. مجلة عالم الفكر(3).
8. بدرة قرقوي. (2016). نقد النقد في المغرب العربي. تلمسان، الجزائر: كلية الآداب واللغات جامعة أبي بكر بلقايد.
9. بدوي طبانة. (1986). التيارات المعاصرة في النقد الأدبي (المجلد 3). الرياض: دار المريخ.
10. بول ريكور. (2003). نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى. (سعيد الغانمي، المترجمون) بيروت: المركز الثقافي العربي.
11. بول ريكور. (2004). من النص إلى الفعل. (محمد برادة، وحسن بورقية، المترجمون) الرباط: دار الأمان.
12. تزفيطان تودوروف. (1986). نقد النقد رواية التعلم (المجلد 1). (سامي سويدان، المترجمون) بيروت: منشورات مركز الإنماء القومي.
13. جابر عصفور. (أبريل, 1981). قراءة في نقاد نجيب محفوظ قراءة أولية. مجلة فصول (3).
14. جعفر السيحاني. (2015). مفهوم التأويلية. (محمد حسن السالم، المحرر) مجلة قراءات معاصرة (1).
15. جلال الدين السيوطي. (1973). الإتقان في علوم القرآن (الإصدار ج2). بيروت: المكتبة الثقافية.
16. حميد لحميداني. (2014). سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر (المجلد 2). فاس: مطبعة أنفو–برانت.
17. دايفيد جاسبر. (2007). مقدمة في الهرمنيوطيقا (المجلد 1). (وجيه قانصو، المترجمون) بيروت: الدار العربي للعلوم.

18.دوالي بلخير. (2021). إشكالية نقد النقد الأدبي قراءة في حدود الماهية وطبيعة المنهج. مجلة اللغة الوظيفية (2).

19.رشيد هارون. (2012). الأسس النظرية لنقد النقد. مجلة بابل للدراسات الإنسانية (1).

20.سعيد جلال الدين. (1998). معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية (المجلد 1). تونس: دار الجنوب للنشر.

21.شريف نجيب حساني. (2012). رسالة الغفران للمعري –قراءة تأويلية–. بسكرة، الجزائر: جامعة محمد خيضر.

22.شكري محمد. (2008). مقدمة في أصول النقد (المجلد 1). دبي: مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية.

23.عادل مصطفى. (2008). فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا– نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمير (المجلد 1). القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

24.عبد الحكيم الشندودي. (2016). نقد النقد حدود المعرفة النقدية. المغرب: إفريقيا الشرق للنشر.

25.عبد الحميد هيمة. (26 – 27 أكتوبر 2011). القراءة التأويلية الآليات والحدود. الملتقى الوطني الأول: الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة والأدب. ورقلة – الجزائر: جامعة قاصدي مرباح.

26.عبد الرحمن التمارة. (2017). نقد النقد بين التصور المنهجي والإنجاز النصي (المجلد 1). الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

27.عبد العزيز قلقيلة. (1975). نقد النقد في التراث العربي (المجلد 1). القاهرة: منشورات المكتبة الأنجلو مصرية.

28.عبد الغني بارة. (2005). إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر مقاربة حوارية في الأصول المعرفية. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

29.عبد الله العروي. (1990). مفهوم التاريخ (المفاهيم والأصول) (المجلد 1). بيروت: المركز الثقافي العربي.

30.عبد الله بريمي. (2010). السيرورة التأويلية في هرمينوسا هانز جورج غادامير وبول ريكور (المجلد 1). الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام.

31.عبد الله توفيقي. (2012). السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر مقاربة في نقد النقد (المجلد 1). إربد –الأردن: عالم الكتب الحديث.

32.عبد الملك مرتاض. (2003). نظرية القراءة (المجلد 1). وهران –الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.

33.عبد الملك مرتاض. (2005). في نظرية النقد متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد نظرياتها (المجلد 1). الجزائر: دار هومة.

34.عبد النبي أصطيف. (1983). نحو تحديد المفهوم النقدي. مجلة مواقف (47).

35.عبد الواحد لمرابط، وآخرون. (2015). أسئلة القراءة وآليات التأويل بين النقد ونقد النقد (المجلد 1). المغرب: دار الأمان.

36.عقيلة مصطفى. (2009). التأويل وتحليل المحتوى في البحث العلمي الإنساني. مجلة الواحات للبحوث والدراسات (1).

37.علي حرب. (2007). التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية (المجلد 2). بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

38.علي سامح الكردي. (2007). تلقي الهرمنيوطيقا في النقد المعاصر. العراق: جامعة بابل.

39.عمر زرفاوي. (10 فيفري, 2021). المشروع النقدي لسعيد السريحي. (عبد القادر فيدوح، المحاور) YOUTUBE. تاريخ الاسترداد 21 ديسمبر 2021، من https://www.youtube.com/watch?v=aFWPLtgRf-E&t=771s

40.محمد أفقير. (07 أيار (مايو), 2009). مفهوم نقد النقد. تاريخ الاسترداد 10 ديسمبر, 2021، من ديوان العرب: https://www.diwanalarab.com/مفهوم-نقد-النقد

41.محمد الدغمومي. (1999). نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر (المجلد 1). المغرب: منشورات كلية الآداب بالرباط.

42.محمد باري. (2010). التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات (المجلد 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.

43.محمد برادة. (1985). مقدمة درجة الصفر للكتابة (المجلد 3). المغرب: الشركة المغربية للناشرين المتحدين.

44.محمد بلعيد. (يونيو, 2020). نقد النقد الأدبي – الأسس النظرية والمقاربة المنهجية-. مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية (62).

45.محمد شوقي الزين. (2018). نقد العقل الثقافي. تلمسان: منشورات مدارج.

46.محمد عابد الجابري. (1985). الخطاب العربي المعاصر. بيروت: دار الطليعة.

47.محمدي بوعلام. (جوان, 2018). في نقد النقد. مجلة علوم اللغة العربية وآدابها (2).

48.مصطفى ناصف. (1997). محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

49.منى طلبة. (د ت). الهرمنيوطيقا المفهوم والمصطلح. أرشيف المجلات الأدبية والثقافية (14).

50.نجوى القسنطيني. (سبتمبر, 2009). في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره. مجلة علم الفكر (1).

51.نصر حامد أبو زيد. (1990). مفهوم النص (المجلد دط). بيروت: المركز الثقافي العربي.

52.هانز جورج غادامير. (2006). فلسفة التأويل (الأصول، المبادئ، الأهداف) (المجلد 1). (محمد شوقي الزين، المترجمون) الجزائر: منشورات الاختلاف.